كلية : الآداب

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الثانية

أستاذ المادة :

اسم المادة بالغة العربية : الكتاب القديم

اسم المادة باللغة الإنكليزية : old book

اسم المحاضرة الحادية عشر باللغة العربية: بناء كتاب البيان والتبيين:

اسم المحاضرة الحادية عشر باللغة الإنكليزية : Building a statement and explanation book

بناء كتاب البيان والتبيين:

يقول الأستاذ العمري: "هناك مجموعة من نقط الارتكاز في عمل الجاحظ يمكن الاهتداء بها والرجوع إليها خلال عملية الاستكشاف ما حولها من خطب وأمثال وشعر وأخبار ومناقشات نقدية وسجلات حجاجية. والطريق الأول المؤدي إلى فهم عمل الجاحظ يكمن في التفريق بين المركز الذي يتصف بالاستقرار، وان سار من التعميم إلى التخصيص (...)، والمحيط المتحرك المتكون من الوسائل المفضية إلى البيان، تلك الوسائل التي تختلط أحيانا بمفهوم البيان وتكاد تلتبس به"

نستخلص من هذه النصوص ومن نصوص أخرى غيرها (يرجع إليها في الكتاب) أن مفهوم البيان عند الجاحظ مفهوم إجرائي؛ أي أنه العملية الموصلة إلى الفهم والإفهام في حالة اشتغالها، حتى وان اقتضى الإجراء التعليمي تقديمها منفصلة أو ساكنة أحيانا.

وعند تأملنا للأصناف الدالة على المعاني من لفظ وغير لفظ نقتنع أن الكتاب قد اتجه في البداية إلى وضع نظرية لمعرفة الكون والإنسان، وتداول هذه المعرفة بالأدلة المختلفة. إنها نظرية رمزية كونية: عقد الرموز وفكها بالتواضع والاعتبار (التأمل). فالشيء المركزي الثابت في كتاب البيان والتبيين هو الفهم والإفهام بالوسائل المختلفة: الوسائل الغوية والإشارية خاصة. أما المحيط فقد كان إلى حد ما، مرنا بوعي وإرادة من الجاحظ. وقد عبر عن ذلك في مناسبات عديدة وبعبارات لا لبس فيها:

١- يقول مقدما "كتاب العصا"، وهو أحد أبواب كتاب البيان والتبيين:

"هذا، أبقاك الله، الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين، وماشابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والنتف المستخرجة، والمقطعات المتخيرة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة، والجوابات المنتخبة "

فهناك إذن، حديث في صميم النظرية البيانية، وهناك إيراد لما يتصل بها مشابهة ومشاكلة من مواد ضرورية للخطيب. حتى الشعر المثبت في الكتاب هو شعر"المذاكرة" و"الجوابات"، فتأمل؟ يقول الأستاذ العلامة أمجد الطرابلسي، عند هذه الخصوصية قائلا: "إن الاستشهادات الشعرية في هذا الكتاب كثيرة، ولكنها ليست دائما مقاطع مختارة بهدف الاختيار، إنما هي متفرقات ملائمة لرأي تؤكده، أو ملاحظة تغنيها. ولذلك فإنها تستمد قيمتها من تنوعها، ومن تجانسها مع المقام الذي تذكر فيه".

٢- ومهما كان هناك من حاجة إلى تنشيط القارئ فإن الأمر لا يؤدي إلى الخروج عن الموضوع جملة، يقول:

"وجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يداوي مؤلفه نشاط القارئ له، ويسوقه إلى حظه بالاحتمال له. فمن ذلك أن يخرجه من شيء إلى شيء، ومن باب إلى باب بعد ألا يخرجه من ذلك الفن، ومن جمهور ذلك العلم".

يؤكد الدكتور عباس أرحيلة أن: "ما اعتبره الناس استطرادا، كان عند الجاحظ منهجا في التأليف؛ جاء نتيجة تنوع معارفه، وسعة ثقافته، ونتيجة ما يجده من لذة في تنويع المادة واستقصاء جوانبها والبحث عن غرائبها ودقائقها (...) وغايته أن يلم بالموضوع من جميع أطرافه، ويرده إلى مختلف عناصره"؟. لقد كان هم الجاحظ -في نظر الدكتور أرحيلة- هو تقييد ما تناثر من آداب العرب وجمع شتات النصوص ومن هنا ضربت آثاره في عدة اتجاهات واتسمت بالشمولية.

ويعلق الدكتور محمد العمري على كلام الجاحظ السابق بقوله : "فهو يعلم إذن أو يعتقد على الأقل، أنه مهما تصرف في مواد كتاب البيان والتبيين فيما يتعلق بطريقة العرض فإنه يظل داخل عموم البيان وهمومه (...) والواقع أن مادة الكتاب لا تخرج عن ثلاث محاور:

١- وظيفة البيان وقيمته.

٢- العملية البيانية وأدواتها.

٣- البيان العربي.

رغم المآخذ التي سجلت حول كتاب "البيان والتبيين"، فإنه يبقى أهم كتاب عرفه الأدب العربي قديما وحديثا، ويبقى مؤلفه الجاحظ من أكبر المساهمين في ازدهار الكتابة، حيث أصبح النثر على يديه أداة لتقييد الخواطر النفسية والملاحظات الفنية وارتقى في كتابته إلى ما يفوق الشعر أحيانا. ثم إن الجاحظ قد دفع بكثير من الألفاظ إلى الخروج من الدلالات الخاصة إلى مجال الاصطلاح العام واستطاعت مدرسته النثرية أن تحتل المرتبة الأولى وتكون النموذج الأمثل لأغلب الكتاب من بعده، وذلك بإسهاماته النادرة في تطوير البيان العربي، حيث كانت كتبه وعلى قمتها"البيان والتبيين" من المصادر المؤسسة للنثر العربي ونقده على حد سواء.